تفسير الجواهر في تفسير القرآن وأثره في مناهج التفسير الملايوية

اسماعيل عبدالله[1]، سيوطي عبد المناس[2]، محمد ذاكر بن حسين[3]

جامعة السلطان الشريف علي الاسلامية
Universiti Islam Sultan Sharif Ali (UNISSA) Brunei Darussalam
ismai.abdullah@unissa.edu.bn
shayuthy.manas@unissa.edu.bn
zakir.husain@unissa.edu.bn

ملخص البحث

يعد تفسير: الجواهر في تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوي جوهري أهم وأشمل التفاسير التي تناولت قضية الإعجاز العلمي في كامل القرآن الكريم، وقد تناولته الأقلام بالنقد منذ ظهوره وإلى اليوم، فكشفت الأخطاء المنهجية في تفسيره، والتجاوزات التي وقع فيها الشيخ عن حسن نية وغيرة على الإسلام، كما وضعت الأسس التي تضبط هذا النوع من التفسير بعد أن فرض نفسه على الساحة العلمية. وبسبب قرار منع التداول الذي جوبه به تفسيره خاصة في الحجاز من قبل الملك عبد العزيز لم يكتب لهذا التفسير النجاح والانتشار في العالم العربي، ولكن الشيخ طنطاوي كان قد نال حظه من الشهرة في كثير من أقطار العالم الإسلامي كالهند وأسيا الوسطى وأرخبيل الملايو، لذلك لاقي تفسيره هناك نجاحاً باهراً وأقبل عليه العلماء، وتأثروا بمنهجه الجديد في التفسير واقتبسوا كثيراً من آرائه. وتُعنى هذه الدراسة ببيان منهج الشيخ طنطاوي في تفسيره، والمآخذ التي أخذت عليه من قبل العلماء، والجوانب الإيجابية التي حفظت لهذا التفسير مكانته كذلك، ويعرض البحث كذلك الجوانب الخطرة من مناهج التفسير العلمي للقرآن الكريم بصورة عامة ومن تفسير الجواهر بصورة خاصة، لما تميز به مؤلفه من ميول صوفية سلبية جعلته يقبل بعض النظريات الحديثة التي لا صلة لها بالعلم ولا بالدين. وقد تم تقسيم البحث إلى مقدمة تضمنت التعريف بمنهج التفسير العلمي، وأعلامه، وبعض المؤلفات المهمة فيه، ومبحثين: المبحث الأول: تفسير الجواهر: المنهج والقيمة العلمية المبحث الثاني: خطورة تفسير الجواهر وخاتمة تضمنت نتائج البحث

الكلمات المفتاحية: الجواهر، طنطاوي جوهري، التفسير العلمي

---

[1] محاضر بكلية أصول الدين جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية بسلطنة بروناي دار السلام
[2] محاضر بكلية أصول الدين جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية بسلطنة بروناي دار السلام
[3] محاضر بكلية أصول الدين جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية بسلطنة بروناي دار السلام

Tafsir al-Jawahir fi Tafsir al-Qur'an karangan Syekh Thantawi Jauhari merupakan tafsir yang konprehensif yang mencakupi segala macam tafsir ilmi di seluruh al-Qur'an. Banyak kritikan yang muncul kepada tafsir ini mulai dari awal penerbitannya sampai sekarang. Kritikan itu mencakupi kesalahan metode dalam kitab tafsirnya yang ditulis dengan niat yang ikhlas dan ghirahnya untuk membela agama Islam, sebagaimana ia meletakkan asas untuk pentafsiran jenis ini setelah memaksakan dirinya dalam kancah ilmiah, dan tafsir ini tidak memperolehi kejayaan di negara arab disebabkan keputusan larangan penyebarannya oleh raja Abdul Aziz terutamanya di Hijaz. Akan tetapi Syekh Thantawi memperoleh kejayaan dan kemasyhurannya di banyak negara di dunia Islam, seperti India, Asia Tengah dan Kepulauan Melayu. Oleh karena itu, kitab tafsir ini memperolehi kejayaan yang luar biasa dan para ulama menerima tafsirnya serta terpengaruh dengan metodologinya yang baru dalam kajian tafsir al-Qur'an dan menjadikan kitab tafsirnya sebagai salah satu rujukan. Kajian ini bertujuan untuk menjelaskan metodologi syekh Thantawi dalam kitab tafsirnya dan kritikan kritikan dari para ulama serta sisi positif dari kitab tafsir ini. Kajian ini juga menyingkap sisi sisi yang penting dari metodologi tafsir ilmi secara umum dan kitab tafsir al-Jawahir secara khusus. Dan kecenderungan penulis kepada sufi negatifnya yang tersendiri membuatnya menerima beberapa teori baru yang tidak ada kaitan deangan ilmu dan agama. Kajian ini terbahagi kepada pembukaan yang mencakupi pengertian tafsir ilmi, tokoh tokohnya serta kitab kitabnya. Pembahasan pertama: metodologi tafsir al-Jawahir. Pembahasan kedua: sisi negatif Tafsir al-Jawahir. Dan terakhir penutup yang mengandungi hasil kajian

مقدمة

يعدُّ التفسير العلمي للقرآن الكريم منهجاً جديداً ومستحدثاً في مكتبة التفسير الإسلامية، ونمطاً جديداً في التفكير ولَّد مجموعة من النتائج، بعضها إيجابي والآخر منها سلبي، فالإيجابي منها يتلخص في محاولات جادة مصبوغة بالصبغة العلمية للتوفيق بين نصوص القرآن ومعطيات العلوم الحديثة: الطب والفلك وغيرها من العلوم، وقد تركت هذه المحاولات آثارها في نفوس المؤمنين الذين أذهلهم التطور العلمي الحاصل في الغرب مقارنة بواقعهم المتردي والمتخلف، وشعروا بالاطمئنان والثقة من التوافق بين بعض النصوص القرآنية والنظريات العلمية الحديثة، وأيقنوا أن القرآن الكريم يقدم نظرية متكاملة عن المعرفة، ويتقدم على بقية الكتب المقدسة في توافقه وانسجامه مع المكتشفات العلمية.

وأما الجانب السلبي في هذا النمط من التفسير فيكمن في المحاولات المستميتة لربط آيات القرآن الكريم بما تقدمه العلوم التطبيقية من نتائج، وظهرت هذه المحاولات كنتيجة طبيعية للحماس الذي أظهره أهل التفسير العلمي وإيحاءاتهم الدائمة بأن منهجهم خير المناهج الحديثة للتعامل مع معطيات العصر، وكانت النتيجة أن تحولت بعض آيات القرآن إلى ميدان مفتوح على الأفق لنظريات في الفلك والفيزياء، ووضعت آراء المفسرين القدامى جانباً حول تلك الآيات لأنها لا تنسجم مع روح العصر، وأصبحت أسس علم التفسير ـ التي وضعها العلماء كشروط لا بد من توافرها لمن يقدم على تفسير القرآن ـ عرضة للنقد والمراجعة الحاسمة.

ولعل الإمام الغزالي هو أول من تحدث عن التفسير العلمي، من خلال تأكيده على أن القرآن الكريم يحوي علوم الأولين والآخرين، وينطوي على مجامع العوم المتنوعة، فقال: "كل ما أشكل فهمه على النظار، واختلف فيه الخلائق في النظريات، والمعقولات، ففي القرآن إليه رموز، ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها الفنية، إلا ما اقتضته الضرورة لتبيان المعنى، بحيث يكون وسطاً بين الإفراط والتفريط"[4]. ومن بعد الغزالي تصدر ابن أبي الفضل المرسي لتوكيد هذه النظرة، فذكر أن أصول الصنائع مذكورة في القرآن، وساق آيات رآها تؤكد ما ذهب إليه. وقد أيد السيوطي في الإتقان وفي كتابه "إكليل التأويل في استنباط التنزيل" هذا التوجه، لكن الإمام الشاطبي عارض هذا التوجه في كتابه "الموافقات" لأن أمة الإسلام أمة أمية فيلزم أن تكون الشريعة على معهودهم. وكان من المعارضين لهذا النوع من التفسير في هذا العصر عدد غير قليل منهم، الشيخ محمود شلتوت، والأستاذ أمين الخولي، والأستاذ سيد قطب، والشيخ عبد الله المشد والشيخ الدكتور عبد الحليم محمود، وغيرهم.

وكان من أهم هذه الكتب التي ظهرت فيها هذه النزعة التفسيرية، كتاب "كشف الأسرار النورانية القرآنية، فيما يتعلق بالأجرام السماوية، والأرضية، والحيوانات، والنباتات، والجواهر المعدنية"، والذي ألفه الطبيب العالم محمد بن أحمد الإسكندراني (ت 1306هـ)، غير أن تفسيره

---

[4] الغزالي، أبو حامد محمد: **إحياء علوم الدين**، (بيروت: دار المعرفة) ج1، ص 289.

هذا لم يستوعب القرآن الكريم كله، وقال في مقدمة تفسيره: "وكنت منذ زالت عني تمائم الطفولية، ونيطت بي عمائم الرجولية، ممن شغف بتعلم الطب ليالي وأياماً، انهمك في دراسته على قدر الطاقة سنين وأعواماً، ثم أقمت بدمشق الشام معتنياً بمداواة أهلها الأمـاثل الأعلام، إلى أن اجتمعت في محفل سنة (1290 هـ) كان حافلاً ببعض الأطباء المسيحيين، فشرعوا يتحادثون في كيفية تكون الأحجار الفحمية، وفي أنها هل أُشير إليها في التوراة والإنجيل أم لا؟ فلم يحصلوا على شي، لا صريحاً ولا إشارة، ثم وجهوا إليَّ السؤال عن القرآن الكريم هل فيه إشارة إلى ذلك؟ فتصدرت للجواب وتلطفت في التفهيم والخطاب، قدر طاقتي ووسعي، وتتبعت كلام كثير من العلماء، وتفردت في طلبه من كتب التفسير والطب، مع زيادة الاجتهاد".[5]

ويعد الشيخ طنطاوي جوهري (ت 1358 هـ) رحمه الله من أبرز رواد مدرسة الإعجاز العلمي، لأنه أول من ألف تفسيراً شاملاً للقرآن الكريم، وقد أثبت الشيخ طنطاوي رسوخ قدمه في الإعجاز العلمي في القرآن الكريم من خلال عدة كتب ألفها في هذا الفن، وتعرف عليه العالم الإسلامي من خلالها قبل أن يؤلف تفسيره، وقد ذكر ذلك فقال: "فأخذت أؤلف كتباً لذلك شتى، كنظام العالم والأمم، وجواهر العلوم، والتاج المرصع، وجمال العالم، والنظام والإسلام، ونهضة الأمة وحياتها، وغير ذلك من الرسائل والكتب، ومزجت فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية، وجعلت آيات الوحي مطابقة لعجائب الصنع وحكم الخلق، وأشرقت الأرض بنور ربها وتقبلها أجلة العلماء قبولاً حسناً، وترجم منها الكثير إلى اللغة الهندية المسماة بالأردية، وإلى لغة القازان بالبلاد الروسية، **وإلى لغة جاوة في الأوقيانوسية**، ولكن ذلك لم يشف مني الغليل ... فتوجهت إلى ذي العزة والجلال أن يوفقني أن أفسر القرآن ... فاستجاب الدعاء".[6]

وكانت ردود الفعل متباينة حول هذا التفسير، فمنهم من عده ـ حينذاك ـ رائد التفسير العلمي، ومنهم من عده مغالياً في توجهاته العلمية وخارجاً عن مناهج المفسرين أصلاً وأنه خرج بالقرآن عن قصده وانحرف به عن معانيه[7]، ومنهم من عد تفسير حاوياً لكل شيء ما عدا التفسير، وتندر بعض الحداثيين على هذا التفسير، ووصفه بمغارة علي بابا التي تحوي كل شيء، وأنه لا يستحق الدراسة إلا بوصفه ظاهرة خاطئة في الفكر العربي الإسلامي.[8]

---

[5] الرومي، فهد عبد الرحمن: **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1408هـ/1986م) ج2، ص 679.

[6] جوهري، طنطاوي: **الجواهر في تفسير القرآن الكريم** (مصر: مصطفي الحلبي وأولاده)، ج1، ص2.

[7] الذهبي، محمد حسين: **التفسير والمفسرون** (مصر: 1976) ج3، ص 183.

[8] الشرفي، عبد المجيد: **الإسلام والحداثة** (تونس: الدار التونسية للنشر، ط2، 1991) ص 73.

تفسير الجواهر: المنهج والقيمة العلمية

ولد طنطاوي جوهري سنة 1287هـ، وتلقى علومه في الأزهر ثم في دار العلوم، وله مصنفات كثيرة منها: التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم، جواهر التقوى، الزهرة في نظام العالم، نظام العالم والأمم، النظام والإسلام، القرآن والعلوم العصرية، ويعد كتابه "أين الإنسان" قمة أعماله الفلسفية ذات الطابع الإنساني، والذي تُرجم إلى العديد من اللغات الشرقية والغربية، وقرظه غير واحد من كبار المستشرقين أمثال" مارجيليوث، وسانتيلانه، والبارون كرادي فو الذي مدح أفكار الطنطاوي العميقة والداعية إلى السلام وقرنه بالفارابي وتوماس موروس[9]. وتوفي في القاهرة سنة 1358 هـ.[10]

ومنهجه في التفسير قائم على تقسيم السورة إلى أقسام، وذكر مقصد كل قسم (وهذا شيء جديد استحدثه الشيخ في التفسير)، ويهتم بعلم المناسبة القرآنية، وينتقل من التفسير اللفظي إلى اللطائف الدقيقة والظواهر التي تنبه الأذهان إلى سر غامض في الآيات لم يلتفت له، ويستخدم حساب الجمل في تفسير الأحرف المقطعة والبسملة في بداية كل سورة، ويعتني بالجوانب الإصلاحية من مقاومة الجهل والتقليد.

ويستخدم أسلوب المحاورات في تفسيره، ويدخل أشعاره في التفسير، ومقالات كاملة كان قد كتبها، ومقتطفات من الصحف والمجلات، ويحيل إلى كتابه الذي ألفه في علم الأرواح، وقد يستغرق في موضوع علمي فيملأ الصفحات العديدة حول ذلك ويعزز ذلك بغرائب الحوادث والواقعات ويستشهد على ذلك بجدول أو تقرير رسمي أو بيان موجه إلى جمهور الناس فضلاً عن مئات الصور والرسوم التي زيّن بها تفسيره.[11]

وبيّن سبب إقباله على علوم العصر في مقولته: "ولا جرم أن العلوم قسمان: لغوية وغير لغوية، فالعلوم اللغوية مقدمة في التعليم، لأنها وسيلة إلى معرفة الحقائق العلمية من رياضية وطبيعية وإلهية. فإذا كانت العلوم التي هي آلة لغيرها لا تعرف حقائقها إلا بتحليلها إلى أصولها، فكيف إذن تكون العلوم المقصودة لنتائجها المادية والمعنوية؟ فهي أولى بالتحليل وأجدر بإرجاعها إلى أصولها الأولية. لا يعرف الحساب إلا بمعرفة بسائط الأعداد، ولا الهندسة إلا بعد علم البسائط والمقدمات، ولا علوم الكيمياء إلا بمعرفة العناصر وتحليل المركبات إليها، فرجع الأمر إلى تحليل العلوم".[12]

---

[9] البيومي، محمد رجب: **النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين** (مصر: مجمع البحوث الإسلامية، الكتاب الثاني، 1400هـ/1980م) ج1، ص 204.

[10] الزركلي، خير الدين: **الأعلام** (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1979م) ج3، ص 230-231.

[11] آل جعفر، مساعد مسلم: **مناهج المفسرين** (بغداد: دار المعرفة، ط1، 1980م) ص 263.

[12] **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، ج2، ص 10-11.

وأقبل على تفسيره هذا بحماس لا نظير له دفعه أن ينتقص من قيمة علم الفرائض مقارنة بما يظهره هو من إعجاز علمي، ودفعه كذلك إلى النيل من الفقهاء ربما كردّ فعل على تجاهل فقهاء عصره له، فقال: "ولكني أقول: الحمد لله، الحمد لله! إنك تقرأ في هذا التفسير خلاصات من العلوم، **ودراستُها أفضل من دراسة علم الفرائض،** لأنه فرض كفاية، فأما هذه فإنها للازدياد في معرفة الله وهي فرض عين على كل قادر كما هو مقرر في باب الشكر للإمام الغزالي، وهي نفس علم التوحيد الحقيقي، والمعرفة والشكر يكونان على كل امرئ بقدر طاقته. إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن هي التي **أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام** فهذا زمان الانقلاب وظهور الحقائق".[13]

والشيخ طنطاوي جوهري في منهجه التفسيري الجديد قصد تحقيق غايتين نبيلتين، الأولى: مجابهة دعوات الكفر والإلحاد التي استهدفت هدم مدرسة الفكر الإسلامي الحديث، فاتبع في سبيل ذلك مسلك العلوم الحديثة، من رياضة وفلك، ونبات وحيوان، وطبيعة وسائر العلوم الأخرى، داعياً المسلمين التائهين إلى العودة إلى القرآن والاهتداء بهديه، بل جعل الشيخ الهدف من المعجزات التي أيد الله بها رسله مجرد تنبيه إلى المعجزة الكبرى الماثلة أمام أعينهم والتي جهلوا قدرها: الكون وما ينطوي عليه من أسرار ونظام.[14]

والغاية الثانية للجوهري من منهجه المستحدث والفذ هي جمع كلمة المسلمين من شيعة وسنَّة على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم الفقهية، لأن اتباع المنهج العلمي في التفسير يكشف أن الآيات التي تتعلق بكشف آيات الآفاق والأنفس أكثر عدداً بأضعاف مضاعفة من الآيات التي تتعرض للمسائل الفقهية التي دار حولها خلاف بين المذاهب والفرق وأورثت تفرقاً واختلافاً عقدياً فيما بعد، إذ إن آيات الفقه الصريحة لا تزيد عن مائة وخمسين آية في حين أن آيات العلوم تربو على سبعمائة وخمسين آية.[15]

وقد أنكر عليه العلماء إسرافه في سوق الأدلة العلمية وتأويل الآيات لتتناسب معها، وسمى بعض العلماء تفسيره بـ: جواهر العلوم ،لا جواهر التفسير، إذ هو في واد وتفسير القرآن في وادٍ آخر[16]. وعلق تعليقاً عاماً على تفسيره فقال: "وعلى الرغم من أن الشيخ رحمه الله كان تقياً، على ما عرفته فيه، وجربته منه، فإنه كان ذا خيال خصب، وكان لهذا يخضع القرآن لما يتخيله، ويراه، بأفكاره العريضة، ذات الآفاق البعيدة، وإن جانبها الصواب ـ غفر الله له ـ ما قاله عن حسن ظن، مما خالف فيه أمور الدين في تفسير الكتاب المبين".[17]

---

[13] **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، ج3، ص20.

[14] **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، ج11، ص 85.

[15] **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، ج25، ص 53.

[16] الطير، محمد مصطفى الحديدي: **اتجاهات التفسير في العصر الحديث من الإمام محمد عبده حتى مشروع التفسير الوسيط**، ضمن سلسلة بحوث قرآنية، مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر، المؤتمر السادس (القاهرة: الشركة المصرية للطباعة والنشر، 1391هـ/1971م) ص 202.

[17] المرجع السابق، ص 203

والتحليل النقدي الذي نوجهه إلى منهج الشيخ طنطاوي يتمثل في أن طريقته في عرض الإعجاز العلمي في القرآن الكريم تأخذ مسارات ثلاث:

- إثبات أن بعض الآيات تحدثت بالفعل عن حقائق علمية يقينية لم تُكتشف إلا في العصور الحديثة.
- تأويل بعض الآيات لتتماشى مع ظواهر بعض المكتشفات العلمية الحديثة.
- عرض المكتشفات العلمية الحديثة في تفسيره بصورة عرضية، من باب الاستطراد.

والمسار الثالث هو الغالب في تفسيره، وطريقته هذه لا تحمل معاني المراوغة والخداع، بحيث تأخذ كلمة من القرآن جاءت في معرض قصة أو مثل لتبني عليها آكاماً وهضاباً من الإعجاز المزيف، كما ينظر البعض إلى تفسيره لسورة الزلزلة مثلاً، إذ قدّم تفسيراً لفظياً مختصراً لمعاني الآيات، ثم شرع في استعراض ما وقع في إيطاليا من زلازل، وما وصل إليه العلم الحديث من استخراج الفحم والبترول من الأرض وما يقوم به الإنسان في وقتنا الحاضر من استخراج الدفائن من الأرض.[18]

فالعلاقة بين السورة وتفسيرها العلمي واهية لا تقبل الشك، ومثل هذا التفسير لا يخدم نظرية الإعجاز العلمي في القرآن لانعدام الصلة بين الآية والكشف العلمي، فهل كان الشيخ الطنطاوي يبتغي خداع الناس بمثل هذا الاستطراد؟

الجواب قطعاً بالنفي، وتفسير هذه الظاهرة في تفسيره يدعونا إلى الحديث عن إصلاح مناهج التعليم الشرعية التي كانت سائدة في عصره، تلك المناهج التي انبترت فيها العلوم الملية بشعبها (الحديث والفقه والعقائد ...) عن العلوم الحكمية بشعبها (الإلهيات والطبيعيات وصناعة الرياضيين الجامعة بين الحس والعقل...)، وبصورة أخرى حدثت شبه قطيعة فكرية بين العقل والنقل، وسار كل منهما في اتجاه كأنه يضاد ويعاكس اتجاه الآخر، فما كان من الشيخ طنطاوي إلا أن انبرى لمهمة صعبة وشاقة، واختار ميداناً لمهمته الجليلة التفسير، إذ رأى التفسير خير طريق لإيصال العلوم الحديثة إلى المسلمين الغافلين، وسبب اختياره للتفسير دون غيره من العلوم الشرعية هو المكانة المقدسة الذي يحتلها هذا العلم في قلوب المسلمين جميعاً، وفي قلوب علمائهم كذلك الذين أنهى كثيرون منهم مسيرتهم العلمية الطويلة بكتابة تفسير لكتاب الله، واختيار الشيخ للتفسير جاء انعكاساً لقلة اكتراث المسلمين بكتبه العلمية التي كتبها قبل تفسيره، والتي أراد لها أن تكون جسراً إلى الحضارة والتمدن، فلما لم تصادف كتبه نتلك ما أراده لها الشيخ من فاعلية، قرر بحزم حشر هذه العلوم في تفسير كبير، ليقبل عليها الناس من باب الإقبال على التفسير، وحتى تصبح العلوم الحديثة وكأنها جزء لا يتجزأ من أقدس المقدسات، وأشرف العلوم الشرعية!

[18] **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، ج25، ص 255-257.

وبغض النظر عن نجاح أو عدم نجاح هذه الخطة (الجوهرية)، وبغض النظر كذلك عن وجود الانسجام بين ما ساقه من علوم حديثة وبين نصوص القرآن أو عدم وجوده، فإن هذات التفسير دشن خطاً جديداً في عالم التفسير، واختط لنفسه منهجاً فريداً في إثبات الإعجاز العلمي، ودفع المسلمين دفعاً إلى هذا العلم الذي اتخذ منهجية وسطاً الآن. فإن لم يكن له من فضل سوى دفع المسلمين إلى انتهاج سبيل جديد في حل إشكالية العلاقة بين العقل والنقل، وبقوة قلما نشهد لها حضوراً في تفاسير ضخمة، فإن ذلك كفيل بتقدير جهوده البناءة، وتعظيم همته العالية، وغيرته الطافحة على الدين وأهله.

وأما عن علاقة عالم الملايو بالشيخ الطنطاوي، فمعرفتهم بالشيخ قديمة سبقت تأليفه لتفسيره الكبير، ولذلك أقبل علماؤهم على تفسير الجواهر قراءة واقتباساً عندما تم واكتمل، إعجاباً منهم بطريقته الفذة والجديدة في الدمج بين العلم الحديث والقرآن، فانتشرت آراءه في كتب التفسير التي ألفها علماء أرخبيل الملايو بصورة عامة. ونقتبس هنا نص رسالة للطنطاوي صدرت في الثامن من سبتمبر سنة 1924، ونشرتها جريدة الأخبار التي كان يديرها ويرأسها الأستاذ أمين الرافعي، لإظهار مدى العلاقة الطيبة بين الشيخ وأبناء أرخبيل الملايو، ونص هذه الرسالة هو:

"نداء من حضرة صاحب الفضيلة الشيخ طنطاوي جوهري إلى الملوك والسادة الأشراف والأمراء والأعيان وكل ذي حمية دينية إسلامية ببلاد الملايو وسنغافورة وجزائر الهند الشرقية وفولوفينا يستنهض فيه الهمم العلية لإحياء العلوم الدينية:

بسم الله الرحمن الرحيم. السلام عليكم ورحمة الله، أما بعد

فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ... ثم إني أذكركم بما تعلمون أن هذا الزمان اتجهت أنظار الأمم فيه إلى العلوم والمعارف وتشييد المدارس، وإنارة القلوب بالأخلاق والآداب. وإن الأمم الشرقية الإسلامية اليوم أحوج إلى ذلكم من كل الأمم. ولما كانت بلادنا المصرية كعبة أنظارهم، ومرمى آمالهم، ومنتهى مقاصدهم لشرفها باللغة العربية والجامعة الأزهرية والعلوم الدينية، شرّفنا في هذه الأيام ضيف مصر السيد النبيل حسن بن العطاس من مملكة جهور بهادر إحدى ممالككم العامرة، ومعه حضرة عبد العزيز أفندي الشيمي المدرس في أقطاركم، وتحدث معنا في أمر المعارف الدينية ونشرها في أقطاركم المباركة الطيبة، وطلب أن أسافر معه لبث الفكرة وجمع الكلمة، فاستشرت طائفة من أولي العلم والفضل ففكروا ملياً، وأجمعوا أمرهم بينهم وقرروا ما يأتي:

أولاً: لا رقي لأقطاركم المباركة في الدين إلا بإنشاء المدارس في البلاد نفسها.

ثانياً: يجب أن يكون المعلمون من أبنائها، لأن المدرسين المصريين وغيرهم يحتاجون إلى نفقات طائلة لبعد الشقة وطول السفر والغربة عن الأوطان.

ثالثاً: يجب أن يبدأ بتعلم طائفة من أبناء بلادكم العلوم المختلفة في مصر ليكونوا معلمين في المدارس التي تنشئونها فيما بعد إن شاء الله.

رابعاً: يجب أن يبتدأ بإصلاح أحوال التلاميذ الذين هم الآن بالجامع الأزهر تشجيعاً لهم واستنهاضاً لهمم غيرهم من أبناء البلاد.[19]

وبناء على تلك التوصيات فقد شكلت لجنة لمتابعة الأمر، وخصصت لجان إجراء الامتحانات المطلوبة، وخصص وقف خاص للجاويين من قبل السيدة رمز عاشق هانم، ولما رأى ضيف مصر الفاضل العطاس حال هؤلاء الطلاب استأجر منزلاً على نفقته بمعرفة السيد مصطفى أفندي البابي الحلبي حتى يتم النظام المستقبل الذي أعده لهؤلاء الطلاب.[20]

خطورة تفسير الجواهر في تفسير القرآن الكريم

قبل الخوض في خطورة تفسير الجواهر لا بد من التأكيد على أن القرآن الكريم كتاب هداية وإصلاح لمناهج البشر الضالة في تناول قضايا التوحيد والنبوات والبعث، وفيه الوعظ والإرشاد، والوعد والوعيد، والأحكام التي تكفل ضبط نظام الأسرة والمجتمع، ومصداق هذا الكلام ما نتلوه في سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ **هُدًى** لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، فهو كتاب هداية وإرشاد، وأي محاولة لتهميش هذا الهدف أو جعله هدفاً ثانوياً ستقود لا محالة إلى إبطال الوظيفة الأولى للقرآن وللنبوات عموماً.

وبغض النظر عن الغاية النبيلة التي دفعت الشيخ طنطاوي إلى انتهاج منهجه العلمي الجديد في تفسير القرآن فإن منهجه هذا قاده بصورة غير مباشرة وغير متعمدة على الإطلاق إلى تبني فرضيتين تكمل إحداهما الأخرى وتفرزان سوية جملة من النتائج الخطيرة، فأما الفرضيتان فهما:

- النظريات العلمية الحديثة يقينية تم إثباتها بما توصل إليه العقل البشري من وسائل علمية حديثة لم تتخيلها البشرية في تاريخها الطويل.
- آيات الآفاق والأنفس في القرآن الكريم تتفق مع نتائج الكشوفات الحديثة إما بظواهر نصوصها أو بعد إخضاعها لعلمية تأويل.

والنتيجة المرجوة من هاتين الفرضيتين هي دعوة البشرية قاطبة إلى اعتناق الإسلام لأنه الدين الوحيد الذي أثبتت الكشوفات الحديثة أنه دين العقل والروح معاً، وأن الاكتشافات تؤكد صدق هذه الدعوى يوماً بعد يوم.

---

[19] جادو، عبد العزيز: **الشيخ طنطاوي جوهري، دراسة** ونصوص (مصر، دار المعارف) ص 42-43.

[20] المرجع السابق، ص 44.

وإذ نثبت للشيخ طنطاوي إخلاصه الذي لا مثيل له لتقديم القرآن الكريم إلى أجيال المسلمين التائهة وإلى العالم الغربي لاعتناقه، مع التوكيد أنه لم يدع بصورة مباشرة إلى قبول نتائج الكشوفات الحديثة بوصفها حتمية وغير قابلة للنقض، نثبت في الوقت نفسه أنه أسرف في الاعتماد على كثير من الآراء الحديثة في الدراسات التجريبية والرياضية، التي لا تتجاوز مرتبة الفروض العلمية، فحمل القرآن عليها وأنزله على أحكامها الظنية.[21]

ويترتب على ما سبق ما هو أخطر منه، وهو أن هذا النمط من التفسير قد يورث التشكيك بل وقد يفقد ثقة المسلم بكتاب الله، وذلك إذا ما تعرضت إحدى النظريات العلمية للاهتزاز، وكان (التفسير العلمي) قد وجد لتلك النظرية جذوراً في القرآن الكريم، وإذا بتلك النظرية تنهار أمام نظرية علمية جديدة، فتصبح الآيات في حد ذاتها عرضة للتشكيك، وكتاب الله في غنى عن الانتصار له بنظريات قد تهجر غداً وإن استمات أصحابها في الدفاع عنها اليوم ولقيت ترحاباً من بعض علماء الدين. مع العلم أن الشيخ طنطاوي قد قال غير مرة في تفسيره أنه ألَّف تفسيره هذا لينقذ المسلمين من الوقوع في الشك، وكان هو نفسه ـ كما صرح في تفسيره ـ قد وقع أسير الشكوك والاستفسارات العقيمة فأراد للمسلمين أن يتجنبوا الشكوك التي تفقدهم الثقة بخالقهم.[22]

وثمة خطر آخر في هذا التفسير، وهو ترويجه لبعض المعتقدات التي سادت الغرب في وقته، ولا تزال تطل برأسها من حين لآخر، وتتمثل هذه المعتقدات في عملية تحضير الأرواح بوصفها مصدراً من مصادر العلم، واعتمد الشيخ طنطاوي بعض آيات القرآن لإضفاء الشرعية على تلك المعتقدات، من قبيل ما ورد في سورة البقرة عن إحياء المقتول من بني إسرائيل بضرب رفاته ببعض عظام البقرة التي أمر موسى عليه السلام قومه بذبحها: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 72-73]، وما ورد في السورة نفسها من إحياء الطير بعد أن ذبحها النبي إبراهيم عليه السلام وقطعها ووضعها في أماكن متفرقة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة : 260]، وما جاء عن إحياء عزير في بيت المقدس: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِـي هَـذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 259].

---

[21] حسين، محمد محمد: **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر** (مصر ـ الجماميز: مكتبة ومطبعة الآداب) ج2، ص 325.

[22] **الجواهر في تفسير القرآن**، ج17، ص 182.

ومحل الشاهد في هذه الآيات وفق نظرة الشيخ أن الإنسان يريد مشاهدة عملية إحياء الموتى ليزداد إيماناً أو ليكتسب الإيمان، وهذا لا يتحقق إلا بطريقتين: "الطريقة الأولى ما سلكه المجاهدون الزاهدون ولكنها محفوفة بالخطر، ومن شاهد منهم شيئاً لا يمكن لغيره التصديق به. والطريقة الثانية: طريقة استحضار الأرواح، وهي عامة كما تقدم في هذا المقام، ولكن طريقة استحضار الأرواح أيضاً على ما يقولون صعب المنال، ويقولون إن الأرواح النقية لا تخاطب إلا قلوباً نقية خالصة، فرجع الأمر عند الصوفية وعند علماء العصر الحاضر من أوروبا إلى أن المدار على الإخلاص والصدق، وطلب الحقيقة والتوجه لله، فهذا هو الأصل عند الجميع. ولذلك ترى الذين يظنون أنهم استحضروا الأرواح متى غلب حب الدنيا تحضر إليهم أروح كاذبة خاطئة على مقدار هممهم وتكلمهم بالأكاذيب والمواعيد العرقوبية، كما أن المجاهد من الصوفية لا ينال الزلفى إلا باحتقار العالم الفاني".[23]

وفي إحدى جلساته الروحية مع غيره من المؤمنين بتحضير الأرواح، زعم طنطاوي أن روح هارون الرشيد أتته وشكت إليه الكاتب جرجي زيدان الذي افترى الأكاذيب على أخته العباسة، واتهمها بعلاقة غير شرعية مع جعفر البرمكي، وطلب من الشيخ طنطاوي أن يشمر عن ساعد الجد ويكشف اللثام عن الحقيقة، ويبين للناس تهافت هذه الفرية، فتصدى طنطاوي لهذه المهمة العظيمة، وألَّف كتاباً بعنوان "براءة العباسة أخت هارون الرشيد"، فكان اتصاله بعالم الأرواح سبباً في تصحيح خطأ تاريخي فادح![24]

وبهذه الصورة (الصوفية الحالمة) اقتنع الشيخ بـ (علم تحضير الأرواح) وسعى لإقناع المسلمين به، ليزدادوا إيماناً بربهم، ولم يلق بالاً إلى الخلفية التاريخية لظهور هذه النظريات العلمية المزيفة التي تشكل إفرازات مرضية للتحديات الجديدة للفكر الديني عامة والتي اكتملت في منتصف القرن التاسع عشر، تلك التحديات التي تمثلت في "دراسات قامت على مسلَّمات ومقدِّمات تنقض الإيمان الدِّيني، لأنها تعتمد وجهة نظر وضعيَّة خالصة عن الدِّين، استسلم أتباعها لمعطيات نظريَّة التَّطوُّر العضوي التي أرسى إطارها العام جارلس دارون (1809-1892)، والتي نقل العلماء مضامينها والنَّتائج التي تلزم عنها إلى دوائر العلوم الإنسانيَّة كعلم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم مقارنة الأديان وتاريخها وأدت إلى إنكار الوحي كظاهرة متعالية مجاوزة للتَّاريخ وتقع خارج سنَن التحوُّل والتغيُّر في الزمان والمكان والحال، ومن ثَمَّ جعلها ظاهرة تاريخيَّة ـ وضعيَّة صرفة، شأنها شأن المظاهر الثقافيَّة التي خضعت وتخضع ضرورة لسُنَّة التطوُّر، كسيرورة طبيعيَّة لا انفكاك منها، أو عدِّها من مظاهر السحر ونتاج عقول مصابة بالحمَّى".[25]

---

[23] **الجواهر في تفسير القرآن**، ج1، ص 89.

[24] **الشيخ طنطاوي جوهري: دراسة ونصوص**، ص 84-85..

[25] فتاح، عرفان عبد الحميد: **النصرانية: نشأتها التاريخية وأصول عقائدها** (كوالا لمبور: دار التجديد، طبعة جديدة ومنقحة، 2005) ص 9.

وكان من النتائج (المرضية والفاسدة) لتلك الدراسات: تغليف الطقوس السحرية القديمة والشعوذات التي لا تمت بصلة إلى العلم بغلاف العلم نفسه، فصار تحضير الأرواح علماً يتحدى ليس فقط الوحي الذي يشكل المرتكز الأساس لكل الديانات، وإنما يتحدى ثالث أعمدة العقائد الدينية (البعث)، وإخضاعه لبرنامج علمي مزيف، وهكذا أصبح تحضير الأرواح علماً ينافس العقائد الدينية ويتفوق عليها في نتائجه السريعة والممكن تحصيلها من قبل أناس لا يقيمون للكتب المقدسة وزناً. وقد بين بعض العلماء الغرض من الترويج لهذه النظريات، فقال: "الذين يدّعون استحضار أرواح الموتى يستحضرون روح المسلم وروح النصراني وروح اليهودي وروح البوذي، وغير أولئك وهؤلاء من أهل الجاهلية على تباين نحلهم من مختلف بقاع الأرض ويزعمون أنهم جميعاً يعيشون في سعادة وهناء، ومعنى ذلك أن السعادة والهناء لا تتوقف على الدين الذي يختاره الناس لأنفسهم في حياتهم الأرضية، وذلك يؤدي إلى الاستخفاف بالأديان كلها، وإلى تكوين مفاهيم دينية جديدة".[26]

وفضلاً عن هذا وذاك، فإن إدراج المعجزات والاطلاع على الغيب في الفكر الديني مجدداً، وبعد انقطاعها بانقطاع الرسل، يعني تحجيم دور العقل في الإيمان والعودة إلى عصر المعجزات والخوارق، وكان الإسلام قد اجتث جذور هذا العصر إلى لا رجعة، ونصب راية العقل في حقل الإيمان، فدخل الإيمان بذلك عصر العلم بثقة وقوة، والشيخ طنطاوي نفسه يؤمن أن الإسلام دين العلم، وهو يسعى سعياً دؤوباً إلى تأكيد ذلك، إلا أنه بإدخاله عملية تحضير الأرواح في دائرة العلم، وجعلها وسيلة إلى زيادة الإيمان قد أبطل سحر محاولاته، وأدخل مشروعه العلمي في متاهة الأوهام والأباطيل.

ولعل دفاع طنطاوي عن تحضير الأرواح، والحديث المستمر عنه قد نال إعجاب بعض الاتجاهات الصوفية الغامضة السائدة في أرخبيل الملايو، والتي لا زالت تستنير في تطلعاتها الصوفية بشيء من التعاليم السحرية التي كانت سائدة في عصر ما قبل الإسلام، ووجدت في إضفاء المشروعية الدينية على أوهام تحضير الأرواح، ومن قبل عالم مسلم جليل ومعروف بالحكمة، إضفاءً للمشروعية على طرقها هي الأقدم والأكثر إغراء وتأثيراً.

وشبيه بعملية تحضير الأرواح ما ساقه الشيخ من أحاديث عن الحقن (مصل الصدق) التي تدفع المسجونين والمجرمين إلى الاعتراف بما اقترفوه وهم في حالة غيبوبة كاملة، وجعل مثل هذه الوسائل في مقام أدلة الإثبات، بل رأى أن تنقذ الكثيرين من الأبرياء من أحكام جائرة، وتحصر الجريمة في دائرة صغيرة، ربما تتقلص هذه الدائرة لتصبح شخصاً واحداً، وهو الشخص المطلوب للعدالة[27]، وساق بعض الأمثلة التي أجريت على مثل هذه المخترعات الجديدة داعياً المسلمين إلى الأخذ بها. وقبل الشيخ كذلك وسيلة التنويم المغناطيسي كدليل من أدلة

---

[26] حسين، محمد محمد: **الروحية الحديثة**، ص 6-7. نقلاً عن الرومي: **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر**، ج2، ص 658.

[27] **الجواهر في تفسير القرآن**، ج3، ص 97.

الإثبات، وربما لأن تلك العلميات كانت في أول ظهروها فقد لاقت رواجاً كبيراً، وانطلى سحرها وبريقها حتى على العلماء فآمنوا بها ودافعوا عنها.

وليس تبني طنطاوي الديني لعلمية تحضير الأرواح سوى امتداد طبيعي لتصوفه السلبي، حيث لا يكف عن ترداد مقولاته الصوفية حول الأحلام والرؤى والإلهامات التي رآها وألهمت إليه، ويجعلها مصدراً من مصادر تفسيره. والمتعارف عليه في دوائر التصوف العالمي أن المعرفة الصوفية في حال ثبوتها لا تتعدى أن تكون تجربة فردية لا يصح تعميمها، كما أنها تتسم باللحظية وعدم مقدرة المتصوفة على التعبير عنها ونقلها لغيرهم، فهي تجربة فردية خالصة، وعلى حد تعبير الإمام الغزالي: "ذُق تعرف"، أي ليس بالإمكان التعبير عن التجربة الصوفية باللغة العادية ولا نقل حقيقتها إلا باستخدام الرمز الذي قد يفضي إلى ضرب جنوح وشطح لأن المعرفة الصوفية معرفة مفارقة تتعالى على اللغة البشرية الضيقة، فهي وبهذه الحالة لا يمكن تدوالها ناهيك عن الاستدلال بها، ولم يجرؤ علماء الصوفية (ممن يعتد بهم كالجنيد والغزالي والقشيري وغيرهم من الصوفية الذين جمعوا بين أدبي العقل والنقل وجعلوا الشريعة حكماً على الذوق) على تبني لغاتهم الإشارية في أبواب العلوم الشرعية، في حين نجد أن الشيخ الطنطاوي نقل التصوف من دائرة التجربة الفردية إلى حقل العلوم الشرعية، مستدلاً بالرؤى الصوفية وما يسميه بالإلهامات في علم التفسير، فعمم التجربة الشخصية المستعصية على التعبير أصلاً وأدخلها ضمن الأدلة العقلية والشرعية.

الخاتمة

يمكن إجمال نتائج البحث في النقاط الآتية:

1. يعد تفسير الجواهر في تفسير القرآن أول وأشمل تفسير علمي للقرآن.
2. يدل هذا التفسير على سعة اطلاع الشيخ طنطاوي على علوم عصره، وتبحره في العلوم الطبيعية، والمذاهب الفلسفية، وقد ساعده على ذلك معرفته التامة باللغة الإنجليزية، وتدريسه في دار العلوم.
3. أبدى الشيخ طنطاوي غيرة على الإسلام، وحماسة منقطعة النظير في تفسيره لإيقاظ همم المسلمين ودفعهم إلى تبني العلوم الحديثة وإحداث تطور مماثل للتطور الغربي في بلاد المسلمين.
4. الإعجاز العلمي عند الشيخ طنطاوي يأخذ مناح متعددة، أوسعها وأظهرها عرض المكتشفات العلمية من خلال التفسير بصورة عرضية وكأنها استطراد، وكان هدفه من ذلك إصلاح مناهج العلوم الملية على وجه الخصوص التي انقطعت عن العلوم الحكمية، وخير دليل على ذلك انشغال الشيخ المبكر بالإعجاز العلمي في القرآن خارج دائرة التفسير، ولما رأى أن ذلك لم يؤد الغرض من رسالته أدخل كتبه السابقة مع زيادات كثيرة في تفسيره.
5. يسرف الشيخ طنطاوي في تأويلاته لبعض الآيات لتنسجم مع ظواهر بعض المكتشفات العلمية.

6. تبنى الشيخ بعض النظريات الحديثة والتي هي أشبه بالشعوذات منها بالعلوم، ودافع عنها وحاول إيجاد خلفية شرعية لها.
7. دفع الشيخ بالتجربة التصوفية من كونها تجربة فردية غير قابلة للتعبير والتداول إلى مصدر من مصادر العلوم المعتمدة بما تنطوي عليه من رؤى وأوهام وخيالات.

قائمة المصادر والمراجع

1. آل جعفر، مساعد مسلم: **مناهج المفسرين** (بغداد: دار المعرفة، ط1، 1980م).
2. البيومي، محمد رجب: **النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين** (مصر: مجمع البحوث الإسلامية، الكتاب الثاني، 1400هـ/1980م).
3. جادو، عبد العزيز: **الشيخ طنطاوي جوهري، دراسة** ونصوص (مصر، دار المعارف).
4. جوهري، طنطاوي: **الجواهر في تفسير القرآن الكريم** (مصر: مصطفي الحلبي وأولاده).
5. حسين، محمد محمد: **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر** (مصر - الجماميز: مكتبة ومطبعة الآداب).
6. حسين، محمد محمد: **الروحية الحديثة.**
7. الذهبي، محمد حسين: **التفسير والمفسرون** (مصر، 1976).
8. الرومي، فهد عبد الرحمن: **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1408هـ/1986م).
9. الزركلي، خير الدين: **الأعلام** (بيروت: دار العلم للملايين، ط4، 1979م).
10. الشرفي، عبد المجيد: **الإسلام والحداثة** (تونس: الدار التونسية للنشر، ط2، 1991).
11. الطير، محمد مصطفى الحديدي: **اتجاهات التفسير في العصر الحديث من الإمام محمد عبده حتى مشروع التفسير الوسيط**، ضمن سلسلة بحوث قرآنية، مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر، المؤتمر السادس (القاهرة: الشركة المصرية للطباعة والنشر، 1391هـ/1971م).
12. الغزالي، أبو حامد محمد: **إحياء علوم الدين (بيروت: دار المعفرفة).**
13. فتاح، عرفان عبد الحميد: **النصرانية: نشأتها التاريخية وأصول عقائدها** (كوالا لمبور: دار التجديد، طبعة جديدة ومنقحة، 2005).